الأوزاعي إمام عامة

لقد وَسَمَ أهل التاريخ والتراجم عدداً من الأجلاء بكونهم (رجال عامةٍ) ومن هؤلاء: إمام أهل الشام: الأوزاعي.
قال أبو إسحاق الفزاري: (ما رأيت مثل الأوزاعي والثوري! فأما الأوزاعي فكان رجل عامة، وأما الثوري فكان رجلَ خاصةِ نفسِهِ، ولو خيرت لهذه الأمة لاخترت لها الأوزاعي)[1].

فلنتعرف على سمات ذلك الرجل الذي وقف نفسه على الناس حاضراً بوضوح بينهم: يعلمهم وينصح لهم، ويحمل همومهم؛ ساعياً لنفعهم، ومتصدراً لخدمتهم وحل مشكلاتهم، بكل رحابة صدر وبشاشة وجه، والمزايا التي يفضل بها على غيره من خلال مطالعة سير هؤلاء الأئمة الموسومين بذلك، فوجدت أنها على نوعين: نوعٍ يشترك فيه رجل العامة مع غيره من العلماء المهديين والعباد الصالحين، ونوعٍ يختص به هذا الصنف من القادة المصلحين والأئمة الربانيين.
ولعل من أبرز خلال النوع الأول الذي يشترك فيه رجل العامة مع غيره؛ ما يلي:
= أولاً: كثرة الخشوع واليقظة والتقدم في العمل:
إذ لا تستطيع حمل هموم الناس والعمل على نفعهم وتبنِّي قضاياهم – مع ما في ذلك من إسقاط حظوظ النفس وتقديم المصالح العامة على المصالح الخاصة – نفْسٌ غافلة، وشخصية شحيحة الزاد هزيلة الراحلة، وخير الزاد التقوى.
فمن كان رقيقَ المحبة والتعظيم لخالقه، قليلَ الخشية منه سبحانه، ضعيف رجاء ما أعده الله – تعالى – لأوليائه، مقِلاًّ من تزكية نفسه وإصلاح قلبه وتقوية الصلة بخالقه؛ لم يقوَ على المضي الطويل في هذا السبيل على وجهه مهما أراده وتاقت إليه نفسه.
فلا بد للرواحل من خشوع وبكاء، واستكثار من عبادة القلب،
قال بشر بن المنذر: (رأيت الأوزاعي كأنه أعمى من الخشوع).
وقال عمرو بن عون: (ما صليت خلف ابن عبد الله إلا سمعت قطر دموعه على الباريَّة)، والبارية: بفتح الباء وتشديد الياء: الحصير المنسوج، فارسي معرب.

ولا بد للمتصدر لقضايا الناس من صلاة، وقراءة، وذكر، وطول قيام،
قال أبو مسهر: (كان الأوزاعي يحيي الليل صلاة وقرآناً وبكاء)
وقال الوليد بن مسلم: (رأيت الأوزاعي يثبت في مصلاه، يذكر الله حتى تطلع الشمس، ويخبرنا عن السلف: أن ذلك كان هديهم، فإذا طلعت الشمس، قام بعضهم إلى بعض، فأفاضوا في ذكر الله، والتفقه في دينه)،

[1] ومن الجلي أن وسم بعض أئمة الدين بأنهم رجال خاصة ليس بمنقص من قدرهم؛ لأنه وإن بزهم غيرهم في جانب قياد المجتمع والتصدر لقضايا العامة؛ فقد بزوا غيرهم في غيره؛ لأن المرء قد يكون إماماً فُتِح له في الفقه في الدين، وقرينه إمام فُتِح له في الزهد والورع، وذاك إمام فتح له في باب الاحتساب، وآخر إمام في جانب العطاء والإنفاق، وكل مسخر لما خُلِق له، وأكرم العباد على الله ـ تعالى ـ أتقاهم له، وكلٌ على بوابة ثغرٍ، والأمة محتاجةٌ إلى كلٍّ، رزقنا الله ـ تعالى ـ رضاه وعفوه

وقال: (ما رأيت أكثر اجتهاداً في العبادة من الأوزاعي).

ولا بد لرجل العامة الحامل لهموم الأمة من حضور قلب وبُعد عن الغفلة، وحذر من الاغترار بمتع الحياة وشهواتها ورضا أربابها، سواء أكان ذلك في الليل أم النهار، في الحضر أم السفر.
وقال الوليد بن مزيد: (كان الأوزاعي من العبادة على شيء ما سمعنا بأحد قوِيَ عليه، ما أتى عليه زوالٌ قطُّ إلا وهو قائم يصلي)،
ويخبر ضمرة بن ربيعة فيقول: (حججنا مع الأوزاعي سنة خمسين ومائة، فما رأيته مضطجعاً في المحمل في ليل ولا نهار قطّ، كان يصلي، فإذا غلبه النوم، استند إلى القَتَب)،
وعن سلمة بن سلام قال: (نزل الأوزاعي على أبي، ففرشنا له فراشاً، فأصبح على حاله).

= ثانياً: الزهد والورع:
فُطِرَت النفوس على عدم محبة الالتفاف حول نفوسٍ نسيت الآخرة، وتعلقت بشدةٍ بأوحال هذه الدنيا الفانية، وجسرت على سلوك أي طريق وخوض أي مفازة ما دام ذلك موصلاً لها إلى تحصيل الملذات والظفر بالرئاسات. فالزهد والورع ركيزتان أساسيتان في شخصية رجل العامة، إذ يُمَكِّنان المرء من احتساب الأجر، والصبر على الأذى، وسلامة الصدر، ونزع الغل، وعدم الحديث عن النفس، وتوقِّي رؤية العمل واستعظامه، وحذر التعالم والخوض فيما يُجْهَل، وعدم انتظار الثناء والشكر، وترك الانتقام للنفس والوقيعة في الناس، أو السماح للآخرين بالتكلم في مجلسه بحديث غيبة، كما يحولان بين المرء والمنة على الناس بما قدمه لهم وأحسن به إليهم، أو أن يلج في المزاحمة لهم على دنياهم.
ومن مظاهر ذلك في حياة رجال العامة ما جاء عن عمران بن حصين – رضي الله عنه – حين كان قاضياً على البصرة؛ أنه قضى على رجل بقضية، فقال: واللهِ، قضيتَ عليّ بجَوْر، وما أَلَوْتَ، قال: وكيف؟ قال: شُهِد عليّ بزور. قال: فهو في مالي، ووالله لا أجلس مجلسي هذا أبداً)،
وقال عقبة بن علقمة: (أرادوا الأوزاعي على القضاء، فامتنع وأبى، فتركوه).
ولم يكن ورع هذا الصنف من الناس قاصراً على توقِّي القضاء، بل شمل حتى ترك الفتيا فيما لا يتيقن علمه. يقول سلمة بن كلثوم: (كتب أبو حنيفة إلى الأوزاعي تسعين مسألة؛ فما أجاب منها إلا بمسألتين).
وأشد الزهد والورع على هذا الصنف من الناس ما تعلق بجانب المال، وذلك لما يلاقيه أحدهم من ضغط العامة وكثرة إلحاحهم وشدة احتياجهم.
ولظهور هاتين السمتين الجليلتين في حياة هذا الصنف من الناس، انظر إلى هاتين الشهادتين الجليلتين:
أورد الحافظ ابن كثير في سياق ترجمته للأوزاعي ما نصه: (وتأدب بنفسه، فلم يكن في أبناء الملوك والخلفاء والوزراء والتجار وغيرهم أعقل منه، ولا أورع، ولا أعلم، ولا أفصح، ولا أوقر، ولا أحلم، ولا أكثر صمتاً منه، ما تكلم بكلمة إلا كان المتعيّن على من سمعها من جلسائه أن يكتبها عنه من حسنها).
وقال الحسن بن الربيع: (ما رأيت أورع من أبي إسحاق الفزاري؛ هو أفضل من معمر).

ثالثاً: الحلم والتواضع:

وهما خصلتان مُمَكِّنتان للعبد من الاتزان والتُّؤَدة، والرفق واللين، وسعة الصدر واحتمال دواعي الغضب، والتبسم وطيب المحيا وإظهار البشاشة، والخلطة الواعية للناس بكافة مستوياتهم وأطيافهم، وحسن الإنصات لهم وسماع همومهم وقضاياهم، والبدار بقدر المستطاع إلى معونتهم وحل مشكلاتهم، مع الستر عليهم، وترك الحديث غير المسؤول عن قضاياهم.

قال صدقة بن عبد الله: (ما رأيت أحداً أحلم ولا أكمل ولا أجمل من الأوزاعي).

وقال ضمرة: (صليت إلى جانب الأوزاعي بمكة، فلما قام حرّكني، فذهبت معه إلى منزله، فأتانا بثريد عليه فول مسلوق).

رابعاً: الجود وكثرة التصدق:

فمن لم يكن طويلَ اليد، كثيرَ الصدقة، كريماً باذلاً للمعروف؛ بَغَضَه الخلقُ، وانجفلوا عنه؛ إذ الجود مسوِّدٌ للوضيع، رافعٌ للشريف، حارسٌ للأعراض، محببٌ العبدَ لدى الأضداد، ولذا قال ابن عباس – رضي الله عنهما – في هذا السياق: (لَساداتُ الناس في الدنيا الأسخياء، وفي الآخرة الأتقياء).

فالسخاء وكثرة الإنفاق والعطاء صفات لازمة لرجل العامة، وإلا فكيف له أن يظفر بقبول الناس وينال محبتهم؟ ولذا فإن الأوزاعي – مثلاً – كان من أكرم الناس وأسخاهم، إذ صار إليه من خلفاء بني أمية وبني العباس نحو من سبعين ألف دينار، فما ترك يوم مات سوى ستة دنانير فضلت من عطائه، كل ذلك كان ينفقه من سبيل الله.

وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل: قال أبي: (كان خالد الطحان ثقة صالحاً، من أفاضل المسلمين، اشترى نفسه من الله أربع مرات؛ فتصدق بوزن نفسه فضة أربع مرات)[٢٥]، وعن محبوب بن موسى قال: (لقيت الفضيل بن عياض فعزَّاني بأبي إسحاق، وقال: كان والله كريماً).

= خامساً: الاحتساب والصدع بالحق:

فمن ترك مقولة الحق وداهن الواقع في منكرٍ، مع علمه وقدرته، من دون تأوُّلٍ سائغٍ في ترك الأمر والنهي؛ أغضب الحق وسقط من أعين الخلق؛ ومن ثَمَّ يكون قد افتقد بتقصيره ذلك أهمَّ عوامل النجاح ومكونات القدرة على توجيه الآخرين وصناعة وجهتهم.

وكلما كان الموقف أرضى للرب، وأصدع بالحق – كثرة أو جرأة في عقل – وأنصح للأمة وألصق بهمومها وقضاياها؛ كان أملكَ لقلوب العامة، وأقدر على ولوجها والتأثير فيها ونيل مودتها.

قال الأوزاعي: بعث عبد الله بن علي (يعني: السفاح) إليّ، فاشتد ذلك عليّ، وقدِمت، فدخلت والناس سماطان، فقال: ما تقول في مخرجنا وما نحن فيه؟ قلت: أصلح الله الأمير! قد كان بيني وبين داود بن علي مودة قال: لَتُخْبِرَنِّي! فتفكرت، ثم قلت: لأصدُقنّه، واستبسلت للموت، ثم رويت له عن يحيى بن سعيد حديث: «الأعمال»، وبيده قضيب ينكت به، ثم قال: يا عبد الرحمن: ما تقول في قتل أهل هذا البيت؟ قلت: حدثني محمد بن مروان، عن مطرف بن الشخير، عن عائشة، عن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال: « لا يحل قتل المسلم إلا في ثلاث..» وساق الحديث.

فقال: أخبرني عن الخلافة، وصية لنا من رسول الله – صلى الله عليه وسلم –؟ فقلت: لو كانت وصية من رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ما ترك علي – رضي الله عنه – أحداً يتقدمه، قال: فما تقول في أموال بني أمية؟ قلت: إن كانت لهم حلالاً فهي عليك حرام، وإن كانت عليهم حراماً فهي عليك أحرم؛ فأمرني، فأُخرِجت).

وقال أبو شعيب: (قلت لأمية بن زيد: أين الأوزاعي من مكحول؟ فقال: هو عندنا أرفع من مكحول، فقلت له: إن مكحولاً قد رأى أصحاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم –؟ قال: وإن كان قد رآهم، فأين فضل الأوزاعي في نفسه، وقد جمع العبادة، والورع، والعلم، والقول بالحق؟).

وليس الأمر بقاصر على الحسبة على سلاطين الجور، بل إن ذلك شامل للاحتساب على زيغ العامة وما قد يقع فيه بعض المنتسبين إلى العلم والدعوة من بدع وانحرافات ظاهرة.

= سادساً: الوقار وحسن المظهر:

جُبِلت النفوس على التعلُّق بجمال النفس، ورقة الكلمة، وحسن الزي، والسمت الحسن، والوحشة من ضد ذلك؛ ولذا لا بد لرجل العامة من ملاحظة رعاية زِيِّه، وتجميل مظهره، وتطييب لفظه، والاتسام بالهدوء والحشمة.

وورد أن الأوزاعي كان يقول: (كنا قبل اليوم نضحك ونلعب. أما إذا صرنا أئمة يقتدَى بنا؛ فلا أرى أن يسعنا ذلك، وينبغي أن نتحفظ)،

وقال الواصف لسيرته: (ما رُئي الأوزاعي ضاحكاً مقهقهاً قط، ولقد كان يعظ الناس فلا يبقى أحد في مجلسه إلا بكى بعينه أو بقلبه، وما رأيناه يبكي في مجلسه قط).

وليس هذا فحسب، بل على المتصدر لقضايا الناس السعيُ لتحصيل الملكة المعِينة على توقِّي ذلك قبل حدوثه. قال محمد بن الأوزاعي: قال لي أبي: (يا بني! لو كنا نقبل من الناس كل ما يعرضون علينا؛ لأوشك بنا أن نهون عليهم).

= سابعاً: الاجتهاد في بذل العلم والنصح للعامة والإجابة عن استفساراتها:

لا يكون طالب العلم مباركَاً حتى يُعْنَى بالإكثار من بذل العلم والجود بالنصيحة، مستثمراً كل فرصة، متفنناً في اختيار الوسيلة النافذة إلى قلوب الناس وعقولهم،

وتدليلاً على ظهور هذه السمة العظيمة في رجل العامة، قال أبو مسهر: (حدثني الهقل، قال: أجاب الأوزاعي في سبعين ألف مسألة، أو نحوها)،

وقال محمد بن عجلان: (لم أرَ أحداً أنصح للمسلمين من الأوزاعي)،

فلا يكون المرء مقبولاً من العامة مقدَّماً فيهم حتى لا يألو وُسْعاً في بذل النصيحة، والعناية بتقديم العلم والدعوة بالسبل الفردية والعامة.

= ثامناً: العناية بخدمة الناس وبذل الوُسع في الشفاعة لهم والقيام بقضاياهم:

وهذا الجانب هو الشيء الملموس واللب الظاهر لرجل العامة، ولن يتمكن المرء من القيام بذلك ما لم يكن لديه احتساب ظاهر، وزاد عظيم من العلم والصبر والحكمة، وحسن الفهم، والتسامح، والشعور العالي بالمسؤولية تجاه

هذه الأمة، وامتلاك الدافع القوي في إظهار محاسن الديانة، ورفع الظلم، وتحقيق العدالة لكل أحدٍ: قريبٍ أم بعيد، شريف أم وضيع، مسلم أم كافر.

وأن يرى المنة لله – تعالى – وحده بأن أتاح له مفاتيح إحسان وبوابات أجر، وجعل الناس واقفين ببابه محتاجين إليه، ولم يجعله كذلك، مما يحمله على مزيد استغفار من التقصير، ويدعوه إلى الاجتهاد في التحلي بمرتبة الشكر.

وهو ما يتطلب منه: معايشةً أكثرَ للناس، والقيام ببذل النفس، وإعطاء الوقت، وعدم ادِّخار السبل والوسائل، واتخاذ مكان ظاهر يُمْكِن للعامة الوصول بسهولة إليه لعرض مشكلاتهم وطلب قضاء حوائجهم منه.

وقد ضرب الإمام الأوزاعي في هذا الباب أروع الأمثلة؛ إذ كتب إلى أمير المؤمنين المنصور في فك ألوف من المسلمين أسرى – وكان ملك الروم يحب أن يفادي بهم ويأبى أبو جعفر – واعظاً له ومذكراً. فلما وصل كتابه؛ أمر الخليفةُ بالفداء.

وكتب الأوزاعي رسالة إلى الخليفة يطلب منه زيادة أرزاق أهل الساحل لكونهم يحمون الثغر.

وكتب إلى والي الشام ينكر عليه إجلاء جميع أهل الذمة في جبل لبنان حين خرج بعضهم عن الطاعة قائلاً: (فكيف تؤخذ عامة بعمل خاصة، فيخرجون من ديارهم وأموالهم؟ وقد بلغنا أن من حكم الله – عز وجل – أنه لا يأخذ العامة بعمل الخاصة، ولكن يأخذ الخاصة بعمل العامة).

وقال أحمد بن أبي الحواري: (بلغني أن نصرانياً أهدى إلى الأوزاعي جرة عسل، فقال له: يا أبا عمرو! تكتب لي إلى والي بعلبك؟ فقال: إن شئتَ رددتُ الجرة وكتبتُ لك، وإلا قبلِتُ الجرة ولم أكتب لك. قال: فردّ الجرة وكتب له، فوضع عنه ثلاثين ديناراً).

والمتأمل في واقعنا الدعوي اليوم يرى بجلاء حاجة أمتنا إلى رجال عامة تحلَّوْا بهذه السمات العظيمة، فانبروا لخدمة الناس، وتحقيق مقاصد الديانة، والعمل على حفظ سياج الأمة من أن يتصدرها فكرياً أو اجتماعياً زائغٌ يقودها إلى التهلكة، أو صاحب شهوة ليس له من هدف إلا بناء مجده وسؤدده، وتحقيق أطماعه ومصالحه، وتأسيس أعمدة شرفه.

فاللهم ألهمنا رشدك، وهبنا بمنِّك وجودك ودقيق لطفك وعظيم إحسانك توفيقَك وبركتك، واستخدمنا في طاعتك، واجعلنا من الذائدين عن دينك وكتابك وعرض نبيك، وصلى الله وسلم على النبي المختار، وعلى الصحب والآل والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.